النحو العربي وتحليل المعطيات الدلالية- النحوية

أولا: المنهج الوصفي في النحو: المنهج الوصفي في النحو العربي/ قانون اجتماعي.

درج النحو في اعتماد تبويبه وتشكيل مفاهيمه وبناء قواعده عند الرعيل الأول من النحاة على المنهج المعياري، وهو منهج متزمت يراعي الجمود والثبات وغير قابل للتغيير، بينما اعتمد النحاة المتأخرون في تقعيد القواعد وبناء الأسس النحوية على المنهج الوصفي، والوصفية تنظر إلى النحو على أنه نظام متحرك، يخضع للوصف والملاحظة والتحليل في أحدى مراحله، ولا يتوقف عند ذلك بل يتجاوزها، ليتطور ويتحرك مع مجريات الزمن، فتكون للنحو قابلية التجدد فيكون في كل فترة في حلة جديدة نابعة من القوانين الاجتماعية التي تساير القواعد النحوية، ويمكن تطبيق هذا المنهج على قاعدة قل ولا تقل، التي انبنت على وفق معايير اجتماعية بحتة، ولا زلنا إلى الآن نتبع ذلك في استعمالنا النحوي.

ثانيا: بناء القاعدة النحوية

ارتبطت القاعدة النحوية منذ أن صاغها وشيدَّ صرحها النحاة الأوائل على المعيارية المحضة، لأنَّ هذه المعيارية قامت على مبدأ الصواب والخطأ، فارتبط النحو لذلك بالصياغة النحوية المتزمتة خاصة في بناء القواعد النحوية، بيد أنّ بناء بعض هذه القواعد تعلق بأسلوب الاستعمال النحوي الاجتماعي فجاءت هذه القواعد مؤسسة على أساس لساني اجتماعي، وذلك عندما توافقت بعض هذه القواعد مع الشائع في الاستعمال، واستبعاد الخطأ والنادر والشاذ من هذا البناء.

مثال ذلك القاعدة الكلية أو العامة: لا يجوز الابتداء بالنكرة، ولكن وفقا للاستعمال أخرج النحاة قاعدة فرعية مفادها جواز الابتداء بالنكرة إذا أفادت معنى

معينا، هذه الفائدة ارتبطت بعقلية المتلقي وفهمه وثقافته، فإذا فهم هذا المتلقي الكلام المبدوء بالنكرة فلا ضير من ذلك والاَّ يكون المبتدأ معرفة فقط.

ثالثاـ السماع والقياس في تبويب القاعدة النحوية.

استنبط النحاة الأوائل القواعد النحوية على أساس معيارين هما:

-السماع.

-القياس.

أ- السماع: عادة ما استنبط النحوي القاعدة النحوية من مادة الاستعمال وهي المسموع من كلام العرب، حتى كان هذا السماع مصدرا لتشريعاتهم النحوية، والكلام المسموع بدوره يُستنبط من لغتهم الاستعمالية المتداولة بينهم، أي : (الكلام المنطوق) أو (المنقول).

والسماع مبني عند النحاة القدماء على الإحصاء، أي جمع كل ما يمكن أن يكّون موضوعا في اللغة، من جذور، وصيغ ، وأنماط وتراكيب ومعانٍ وحقول دلالية ومصادر وتذكير وتأنيث...

واقتصار السماع عند الرعيل الأول من علماء اللغة والنحو على أعراب البوادي الوافدين إلى المدن، أو عبر الترحال إليهم في بيئاتهم البدوية لجمع اللغة الفصيحة التي ابتعدت عن اللحن، كل هذا يعطينا أبعاداً اجتماعية تربط بدايات النحو وما تأسس عليه مع بناء القواعد المستنبطة من ذلك.

إذن يمكن أن يقال أنَّ الأسس التي راعها النحاة العرب في تعاملهم مع المسموع في بناء القاعدة النحوية من المادة اللغوية كانت في جوهرها مبنية على الانتقاء الاجتماعي، وذلك عبر:

أولا: اختيار اللغة المسموعة، التي اجمع النحاة عليها، وهذه اللغة هي اللغة الأدبية المشتركة، التي كانت بدورها محور الاستشهاد فالشواهد مقتصرة عليها، هذه اللغة جامعة لكل قبائل العرب، وهذا فيه بعد اجتماعي.

ثانيا: استبعاد اللغة المستعملة/ المتداولة، المنطوقة التي تمثل لغة القبائل بلهجاتها المختلفة، وهذا الاختلاف كان سببا في استبعادها لاحتوائها على ما يخدش فصاحة اللغة، ومن ذلك: الكشكشة، والعجعجة، والعنعنة ونحوها .

ثالثا:اللغة الأدبية المشتركة تمثل لغة الطبقة الراقية، فهي لغة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والشعر والنثر الفني من الأمثال والأقوال وهي أيضا لغة الدولة والدواوين، فهي –إذن– لغة اجتماعية متمايزة عن غيرها.

رابعا:تمثل هذه اللغة منطوق القبائل الفصيحة التي لم تختلط فيها المجموعات اللغوية بغيرها من غير العرب، فهي لغة تميم وقيس وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين.

خامسا: هي لغة محصنة ومنيعة اجتماعية، إذ تم جمعها قبل أن يكثر الخطأ واللحن في الكلام، لذلك اعتمدها النحاة في مخرجات النحو القواعدية لأنها مثلت اجتماعيا لغة التخاطب الأعلى.

ب–القياس: كذلك تمت إجراءات السماع الأوائل وفقا لمعايير اجتماعية خاصة عند استخراج ما يُعرف بـ(الصوغ القياسي)، فهذا الصوغ يبدأ عند الفرد خاصة في مراحل مبكرة من عمره، فإذا كانت عنده صيغ معينة فإنه يصيغ محلها أخرى، قياسا على الأولى، فمثلا عند الطفل يقول في تذكير وتأنيث الكلمة: أحمر أحمرة قياسا على أكبر كبيرة أو أطول طويلة، بإضافة تاء التأنيث على آخر المذكر، أو أن بعض المتكلمين يقول: مرضعة، وزوجة وحاملة قياسا على قائم قائمة،ووافد وافدة، وهكذا... مع أنَّ القياس فيها مرضع وزوج وحامل، على وفق المستوى الصوابي– الاجتماعي فيها.

والقياس أثر من آثار الاستعمال اللغوي، فهو نشاط لغوي–اجتماعي يقوم به المتكلم لسدّ حاجة المجتمع من المفردات الجديدة خاصة تلك التي تواكب الحداثة

مثل كلمة(مكتب) و(جاهلية) ونحوهما، وسبق أن صور د. إبراهيم أنيس القياس بأنه عملية عقلية يقوم بها المتكلم كلما احتاج إلى كلمة أو صيغة، وهذه العملية تواكب المتطلبات الاجتماعية عند الجماعة اللغوية في كل لغة وكل عصر.

النحو والدلالة الاجتماعية: لا شك أنّ المقصود من الكلام المنطوق هو المعنى الاجتماعي، وعلى الرغم من أنّ النحاة قد بنوا النحو العربي وأسسوه على المباني أكثر من المعاني كقولهم: بالجر والتنوين والندا وألـ....غير أننا نجد أن هناك عبارات تتم عن اعتبارية المعنى المرتبطة بدلالات اجتماعية منها: الاسم ما دلّ على مسمى ثابت، والفعل ما دلّ على حدث وزمن، والحرف دونهما، والمبتدأ ما ابتدأ المتكلم به، والخبر ما يُخبر عنه وهكذا انبنى بعض هذا النحو من:

-طائفة من المعاني النحوية خاصة معاني الجمل والأساليب.

-معاني الأبواب النحوية.

-العلامات التي تربط بين المعاني، كالسببية مثلا، وهذا واضح في قضية الوضع والاستعمال التي استخدمها النحاة الأوائل بوصفها مفاهيم قائمة على الاستعمال الحقيقي من خلال رصد تصرفات المتكلمين في مختلف الأوضاع اللغوية-النحوية: التقديم والتأخير، والحذف والاشباع والاضمار والتضمين، وهذه تعبر عن الاستعمال اللغوي-الاجتماعي، فالاستعمال هو اجراء الناطقين لهذا الوضع من واقع خطاب اجتماعي، إذ يختار المتكلم ما يعبر به عن المعاني والأغراض لأن اللغة ظاهرة اجتماعية لا فردية.